الحدث والايقاع

في قصيدة « أوراق من ملف المهدي بن بركة » ، وهي اهم قصائد المجموعة ، يحمل الشاعر الاحداث التفصيلية في رؤية للقصيدة المركبة ، نادرة ومذهلة . هنا تأتي التفاصيل دقيقة وتفصيلية ، لكنها تخلط ببعضها . فالقصيدة تضرب السياق ولا تمس التفاصيل ، فتصبح دلالات التفاصيل مضاعفة . او انها تتحول عن دلالاتها بوصفها اجزاء ، او كلا يوميا ، لتصبح كليتها من نمط اخر . فشخصية المهدي بن بركة ، تختلط بشخصية الشاعر والقارىء معا . الشاعر يمتزج بالبطل القتيل ، وفي امتزاجه يفترض قارئا يعيد ترتيب التفاصيل التي يسوقها بصيغة جديدة . فتكتمل معادلة القصيدة وتتركب

« في الصباح تأخر من شرب قهوته ، ظلت الغرفة

الجانبية مغمورة بالضياء الى الفجر ... هل كان

يقرأ ؟ باريس تفتحها شاحنات الاقاليم بالجزر المتورد والخضرة المشبعة » .

في هذا المقطع الذي يقترب في حدثيته من لغة القصة القصيرة ،تقيم القصيدة خطا لنمط تداعياتها. فهي تتداعى في ثلاث مستويات : مستوى وصفي : يعيد وصف الفعل الانساني في حركته اليومية ، الغرفة ، القهوة ... مستوى الانتقال الموضوعي: وصف حركة الخارج التي لا تمس بن بركة — الشاعر — بشكل مباشر ، ولكنها تصنع عناصر المدينة . ومستوى العالم الداخلي : الموت ، النضال ، الذي يوحد المستويين الاولين في شفافية مذهلة في قدرتها على مزج اللحظات :

« مترقدا بين انكسار الضوء والحجر القديم

يداي موثقتان خلفي

دارت الاسماك حولي

كنت ألمح في التماعهما السماء » .

هذا التوحيد ، يتم في سياق القصيدة الحديثة التي يصر سعدي يوسف على استعمالها ، فتصبح وكأنها الاطار الذي تبحث فيه قصيدته عن نفسها عبقا .

هكذا يتقدم الحدث لولبيا ، انه ليس تراكما للزمن ، انه تراكم الزمن في القصيدة . وهذا ما يميز الشعر عن لغة الايصال المباشرة . لذلك تصبح لغة الشعر بحثا عن اللغة ، وليست صيغة جاهزة . وتأتي الصورة في عناصرها البسيطة امتدادا لمحاولة اكتشاف الزمن المتحرك ، زمن الجدل في القصيدة . فتصبح دلالة الصورة الشعرية ، دلالة رؤيوية مباشرة . انها لا تقيم توازيات من خارج السياق المثلث الذي اشرنا اليه ، فهي امتداد للعناصر الثلاثة التي تتكون منها القصيدة بشكل عفوي وواضح :

« والرباط قزيبة :

اسوارها الصفراء تدنو وهي تهبط

ثم تدنو وهي تهبط

ثم تدنو وهي تهبط

كانت الاسوار اشجارا واطفالا وماء » .

هذه التداعيات المائية، تأخذ الصورة الشعرية، بوصفها امتدادا لماء النهر الذي يغرق فيه بن بركة والشاعر ، لذلك تصبح الاسوار صورة لابسط عناصر الطبيعة ، الشجر والماء ، وللمستقبل ، الاطفال . وتتقدم القصيدة كسلسلة مواقف في لحظة الموت ، وكأن الحدث الذي تجري صياغته هو استجماع للحظة الموت حين تصبح رمزا سياسيا .

الايقاع ، داخل بنية القصيدة

تأتي بنية القصيدة في هذه المجموعة ، وكأنها سيل بلا ضوابط . لكن عنصر الضبط الخجول ، الذي يتحكم بها ، يقع داخلها ، في استدارة الحدث الذي يربط مفاصل القصيدة ، وفي الحالة التي توحد عناصرها المختلفة . فتأتي القصيدة وكأنها انسياب يمزج بعض عناصر الذاكرة الشعرية الحديثة ، بنفس مأساوي ينساب داخل ايقاع بسيط وهادىء . يلجأ الى التكرار احيانا ، او يمتد في رؤية تحاذي الرومانسية دون ان تسقط فيها ليحاول اكتشاف العالم :

« فالعشب بين الصفرة والنجم البارد ... طال

والليل المتطاول طال

والشعر على الناصية الثورية طال